

## البرجوازي الصغير

د. محمد مندور

البرجوازي الصغير هو أحمد أفندي عاكف، الذي لقيه الأستاذ نجيب محفوظ في «خان الخليلي»، فالتقط لنا صورته الجسمية والنفسية بل والاجتماعية أيضًا، وذلك لا لأنه بطل من أبطال الإنسانية، ولا علم من أعلام الحياة العامة، ولكن لأنه مثلي ومثلك، من آلاف الناس الذين يكونون تلك الطبقة الوسطى، التي يسمونها في أورها بالبرجوازية الصغيرة، بعد أن حلت البرجوازية الكبيرة ذات الثراء الواسع، الذي تدره الصناعة والتجارة، محل الأرستقراطية القديمة التي كانت تقوم على الدم الأزرق أو إقطاع الأرض.

أحمد أفندي عاكف نموذج بشري لتلك الطبقة الوسطى، التي تكون العمود الفقري في المجتمع المصري، وتكون همزة الوصل بين طبقة العمال الكادحين والسادة المترفين، بل لعلها الطبقة القلقة المعذبة، التي لا تريد أن تطمئن إلى الحياة كما تطمئن الطبقة الدنيا، لتأخذ منها ما تستطيع منحه من ملذات ومباهج في غير تدمير ولا سخط، كما لا تستطيع في سهولة أن تشبع طموحها، فترتفع إلى مستوى الطبقة العليا، أي البرجوازية الكبيرة، وتدخل بين صفوفها لتتمتع بما تنعم به تلك الطبقة من مال وجاه وسلطان. وبالرغم من هذا القلق والعذاب المقيم، فإن تلك الطبقة لا تخلو من فضائل رائعة، بل لعلها تنفرد دون غيرها بطائفة من الفضائل التي ترفع من قيمة الإنسانية. وفي رأس تلك الفضائل يأتي الإحساس الصارم بالمسئولية العائلية، والتضحية في سبيل الأسرة، والتفاني في سبيل الأهل والإخوة. وهذه الفضائل هي التي قربت أحمد أفندي عاكف من نفس نجيب محفوظ، بل ومن نفوسنا جميعا، لما

فيها من إنسانية وخلق كريم، يرتفع ميزانها عندنا نحن الشرقيين، الذين تعمر قلوبنا بروحية الأديان والمثل العليا.

ولقد حرص نجيب محفوظ على أن يصور في دقة أحمد أفندي عاكف لكي نستطيع أن نتعرف إليه إذا لقيناه، ولا أظننا إلا ملاقيه في كل يوم في خان الخليلي وغيره من أحياء القاهرة، التي تقطنها البرجوازية الصغيرة. ومن المؤكد أن نلقاه أيضا في دواوين الحكومة التي يعمل فيها هو وأمثاله، في حياة راتبة كئيبة، تتلاحق السنون دون أن تحرك شيئا من مائها الآسن. وإليك هذه الصورة: «أحمد أفندي عاكف كهل يدنو من ختام الأربعين، عسى أن يسترعى الانتباه بنحافة قامته وطولها واضطراب ملابسه اضطرابا يستدر الرثاء، والواقع أن تكسر بنظونه، وانحسار ذراعي الجاكته عن رسغيه، وتلبد العرق والغبار على حرف طربوشه، وتقبض القميص وراثثة رباط الرقبة، وصلعته البيضاوية، وسعى المشيب إلى قذاله وفوديه، كل أولئك أوهم بتكبير سنه، وفيما عدا ذلك فوجهه نحيل مستطيل شاحب اللون ذو رأس صغير مستطيل، ينحدر انحدارا خفيفا إلى جهة تميل إلى الضيق، يحدها حاجبان مستقيمان خفيفان متباعدان، يظلان عينين بالغتين في امتدادهما وضيقهما، فهما يكادان أن يملآ صفحة الوجه الضيقة، فإذا ضيقها ليحد بصره، أو ليتقى شعاع الشمس، بدتا مغمضتين، واختفى لونهما العسلي العميق، وقد تساقطت أهدابهما واحمرت احمرارا خفيفا، يتوسطهما أنف دقيق، وفم رقيق الشفتين، وذقن صغير مدبب».

ولقد يدفعنا حب الاستطلاع إلى أن نتساءل عن سر إهمال أحمد أفندي لنفسه وعدم عنايته بملابسه، فنجد أن نجيب محفوظ قد ساوره نفس التساؤل فأجهد نفسه في تحرى الأمر، وإذا به يعلم أن أحمد أفندي الذي ينحسر ذراعا الجاكته عن رسغيه الآن... إلخ.. قد كان يوما ممن يعنون بحسن هندامهم وأناقتهم، وكان يبدو إذ ذاك في صورة مقبولة، ولكن اليأس والحرص، وما اعتراه بعد ذلك من داء التشبه بالمفكرين، نزع به عن أية عناية بنفسه أو بلباسه. وما أن اكتشف نجيب محفوظ هذا التطور في صورة أحمد عاكف الخارجية. حتى أخذ ينقب عن أسبابها الداخلية، التي ترجع في معظمها إلى ظروف الحياة وقسوة المجتمع، فعلم أن أحمد أفندي «كان قارئنا نهما لا تروى له غلة، وقد أدمن على القراءة إدمانا قاتلا، وأكب عليها عشرين عاما كاملا من عام ١٩٢١ - تاريخ حصوله على البكالوريا - إلى عام ١٩٤١. بيد أنها امتازت منذ البدء

بخصائص لم تفارقها مدى العشرين عاما، وهى أنها قراءة عامة لا تعرف التخصص ولا العمق نزاعة إلى المعارف القديمة سريعة مضطربة، لعل السبب فى عدم تركيزها، ما كان من اضطراره إلى الانقطاع عن الدراسة بعد البكالوريا، مما لم يهيئ له فرصة منتظمة للتخصص. وكان لذلك الانقطاع آثار بالغة فى حياته الاجتماعية والنفسية، لم ينبج من شرها مدى الحياة، أما سببه فهو أن أباه أحيل على المعاش فى ذلك الوقت، وكان يشارف الأربعين - لإضاعته عهدة مصلحية بإهماله، وتطاوله على المحققين الإداريين، فأجبر أحمد عاكف على قطع حياته الدراسية والالتحاق بوظيفة صغيرة، لينفق على أسرته المحطمة، ويربى أخويه الصغيرين اللذين مات أحدهما، وصار الثانى موظفا ببنك مصر. ولقد كان نجيب محفوظ يستطيع أن يجد فى أحمد أفندى عاكف غنيمة باردة يطبق عليها نظريات فرويد وغيره من علماء التحليل النفسى، الذى لا بد أن الأستاذ محفوظ قد درسه، أو درس طرفا منه، أثناء إعدادهِ للسانس الفلسفة بجامعة القاهرة. ولكن الظاهر أن نجيب محفوظ يدرك أن الثقافة الحققة هى أن ننسى ما حصلناه، بعد أن يكون قد أدى وظيفته فى صقل النفس وشحذ القدرة على الملاحظة والمشاركة الوجدانية، كما أنه لا بد مقدر أن مهمته كقصاص، أسمى من مهمة علماء النفس وأعلى درجة فى سلم الإنسانية، ولذلك لا نراه يتهم أحمد أفندى عاكف بما كان يستطيع تلاميذ فرويد وحواريوه أن يتهموه به، لو أنهم لا قوة فى فجاج الحياة. فنجيب محفوظ لا يراه مريضا بمركب نقص ولا بغيره من العقد النفسية، التى يرى فرويد وحواريوه فى ظروف أحمد عاكف ما يمكن أن يولدها. وإنما يكتفى بأن يقص علينا طرفا من تصرفات أحمد أفندى فى الحياة، وأن يصور جانبا من مشاعره، دون أن يترك فكرة علمية تسيطر على عقله وخياله وقوة ملاحظته، فتتلف حكمه على الرجل. ولذلك لم تخرج الصورة النهائية لأحمد أفندى عاكف من يدى نجيب محفوظ، صورة رجل مريض ملطخة بلون واحد هو السواد، بل على العكس من ذلك لم يضمن نجيب محفوظ على الرجل بشيء من عطفه. ولا غرابة فى ذلك، فنجيب محفوظ لم يلاحظ الرجل من نافذة برج عاجى بل نزل إلى الشارع، إن لم يكن إلى الزقاق، الذى يقيم فيه أحمد عاكف بحى خان الخليلى، الذى انتقل إليه هو وأسرته بسبب الغارات الجوية، التى اضطرتهم إلى الانتقال من منزلهم القديم بحى السكاكينى القريب من العباسية، هدف الهجوم عندئذ. ولعل نجيب محفوظ من أولئك الإنسانين الذين يحبون الضعفاء ويعطفون عليهم، ولا ينكرون طموحهم المشروع فى عرف الحياة،

وينادون مع ألفريد دى فينى قائلين: «إننى بقدر ما أحب الأقوياء أحب الضعفاء، الذين يلقون وسط الأمواج الصاخبة بأذرعهم الهزيلة». وتلك نظرة إنسانية لم تنم عن عطف على الحياة فحسب، بل واحترام لها. وإلا فمن الذى يستطيع أن ينكر على أحمد أفندى عاكف حقه المشروع - بحكم الحياة ذاتها - فى أن يتطلع إلى رفع مستواه، وتحقيق طموحه المشروع؟ ومن ذا الذى يضمن عليه بالعطف، عندما يحس ما وقر فى أعماقه من إنه شهيد مضطهد وعبقرية مقبورة وضحية مظلومة للحظ العاثر، وبخاصة إذا ذكرنا أن نجيب محفوظ - رغم دقة ملاحظته ومهارة تحرياته - لم يعلم أن هذا الاعتقاد قد دفع أحمد أفندى عاكف إلى الإساءة إلى غيره من البشر، أو أحاله إلى مجرم ساخط على الإنسانية، دائب على تحطيمها، وإهدار كل القيم الإنسانية. وكل ما لاحظته نجيب محفوظ بحق هو أن أحمد أفندى عاكف كان يطمئن إلى «المعلم نونو» الخطاط، أكثر من اطمئنانه إلى أحمد أفندى راشد المحامى، وذلك لأن عاكف أفندى كان يحس كموظف بتفوقه الاجتماعى والثقافى على المعلم نونو، بينما كان يشعر بشيء من التمرد الحنق إزاء الأستاذ راشد، الذى أتم دراسة القانون وأصبح محامياً، بينما لم يستطع عاكف أفندى أن يحقق هذا الحلم، ونفض يده من الدراسة الليلية بعد أن رسب فى امتحان السنة الأولى بالحقوق. بسبب اضطراره إلى أن يكتفى بالانتساب من الخارج، حيث كان يعمل فى الصباح بوزارة الأشغال، ليقوت نفسه ويقوت أسرته. وما نظن أن هذا التصرف يرجع إلى مرض نفسى. فعاكف أفندى رغم اطمئنانه للمعلم نونو، فإنه كان يغطه بل ويحسده أحياناً، لما لاحظته فيه من رضى بالحياة، وقدرة على خوض غمارها واستهانة بالأمها وأعبائها. وقد تركزت فلسفته فى الحياة فى جملة واحدة كانت تصعد من الزقاق إلى نافذة عاكف أفندى وهى «ملعون أبو الدنيا»!!

وإذا كان هناك أى شك فى أن أحمد أفندى عاكف لم يصب بعقدة نقص أو غيرها من الأمراض النفسية التى يدعى الفرويديون أنها تتلف حياة البشر، وتنزل بهم إلى منزلة حيوانية شريرة، فإن هذا الشك يتبدد، عندما نطالع ما حدثنا به نجيب محفوظ من فضائل أحمد عاكف وقدرته على التضحية بنفسه وماله وسعادته فى سبيل أسرته، وبخاصة أخوه الصغير رشدى عاكف، الذى تكفل بتربيته وتعليمه حتى حصل على بكالوريوس التجارة، وتوظف ببنك مصر فى فرع أسيوط أولاً، ثم نقل إلى القاهرة،

حيث حطم أحلام أخيه الأكبر، وبدد سعادته المرتقبة بعد طول الزمن، إذ استطاع بفض نضرة شبابه وفيض حيويته وجسارته، أن ينتزع حب نوال بنت الجيران من أخيه الكهل المفرط الحياء. ولقد كان أحمد أفندي عاكف يستطيع أن يخبر أخاه الصغير الذى ينزله منزلة الأب بتعلقه بنوال، ويطلب إليه الانصراف عنها لتخلص له فيتزوج منها، ولكنه على العكس من ذلك أثر أن يكتفم شعوره نحو هذه الفتاة، وأن يخلى السبيل لأخيه الصغير بالرغم من قسوة ما تحمل فى سبيل ذلك من آلام. بل لقد أصيب أخوه رشدى بعد ذلك بمرض السل، فحنا عليه أحمد حنوا رائعا، ووالاه بعطفه ومواساته على أنبل نحو وأرقاه فى سلم الإنسانية. ثم حم القضاء فمات رشدى وأصبح أحمد أفندي - بعد أن انقضت غمرة الحزن - فى حل من أن يعود إلى الفتاة. ولكن وفاءه لذكرى أخيه الحبيبة إلى نفسه، زادته صلابة فى تضحية سعادته، ومحاربة كل خاطر يعاوده عن تلك الفتاة، وهكذا أيد أحمد أفندي ما قلناه من أنه أنموذج لتلك الطبقة الوسطى التى تتمثل فيها خير فضائل المجتمع، رغم ما تعانيه من محن وآلام.

نعم إن قسوة الظروف لم تجعل من أحمد أفندي عاكف رجلا مريضا أو شريرا، بل ظل مثلى ومثلك ومثل نجيب محفوظ، رجلا عاديا كغيره من آلاف الرجال الذين تقسو عليهم أحيانا الحياة، وتقتصر ملكاتهم عن تحقيق طموحهم، فيشققون ويتمردون، بل ويتمنون فى لحظة خاطفة أن لو دمر العالم مع نجاتهم هم ومن يعلقون بهم سعادتهم، كما تمنى أحمد أفندي عاكف فى إحدى لحظات يأسه وشعوره بالضعف، أن لو بادت القاهرة بمن فيها ولم يبق إلا هو ونوال فيفوز بها دون غريم أو منافس، ولكن مثل هذه اللحظات التى يسيطر فيها ضعفنا البشرى على عقولنا وحسنا الخلقى، لا تلبث أن تتبدد، وأن نستعيد منها بنزعة الخير الأصيل فى نفوس أحمد أفندي طبقته الاجتماعية. ولا أدل على ذلك من أن نجيب محفوظ لم يلحظ عليه أية خاطرة ولو عابرة، من غبطة ظاهرة أو خفية، بل ولا من انفراج كرب، لوفاة أخيه رشدى وإمكان انفراجه بنوال. وعلى العكس من ذلك حزن أحمد أفندي لوفاة أخيه حزنا عميقا، وظل وفيما لذكراه، قاسيا على نفسه، متحملا جميع أرزاء الحياة فى شجاعة وصبر كريم.

هذا هو البرجوازي الصغير أحمد أفندي عاكف كما صورته نجيب محفوظ وأحسن التصوير. ولقد يستطيع الفرويديون أن يقتنصوه ليشرحوه فى معاملهم، ولكن نجيب محفوظ لن يكون مسئولا عن هذا الشطط، بعد أن صور فأحسن التصوير فى دقة

وأمانة، ولاحظ أنه إذا كانت هذه الطبقة الوسطى تضطرب حياتها بالألم والسخط والتمرد، كما تضطرب بعض علاقاتها الاجتماعية، بسبب طموحها الفاشل، وتخبطها في الجهاد للارتفاع عن مستوى طبقتها الاجتماعى، والثورة على أوضاع الحياة، وكثرة السخط، نتيجة لإيمانها المسرف بحقها المضطهد، وعبقريتها الشهيدة - فإنها مع ذلك تحتفظ بالكثير من أسمى الفضائل الإنسانية، التى يأتى فى قمتها تقديس الأسرة والتضحية فى سبيلها، وهذه الفضائل هى التى حملت نجيب محفوظ كما حملتنا على العطف على أحمد أفندى عاكف البرجوازي الصغير، أنموذج الطبقة الوسطى المصرية، بما فيها من هنات وفضائل، قد تتفاوت نسبها، ولكنها فى جملتها حقائق، يستطيع أن يتثبت منها كل مصرى إذا أمعن النظر فى سكان خان الخليلي، وغيره من أحياء القاهرة، وذلك بشرط أن يحسن الملاحظة، لأن ملاحظة ما نراه كل يوم أمر شاق، يحتاج - كما قال روسو - إلى كثير من الفلسفة، التى وهبها الله لنجيب محفوظ.

عن كتاب «قضايا جديدة فى أدبنا الحديث»

بيروت ١٩٥٨ .